

تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها { أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي } قال قتادة : قد كانت لهم جنات وأنهار ماء { أفلا تبصرون } أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك يعني موسى وأتباعه فقراء ضعفاء وهذا كقوله تعالى : { فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه } نكال الآخرة والأولى .

وقوله : { أم أنا خير من هذا الذي هو مهين } قال السدي : يقول بل أنا خير من هذا الذي هو مهين وهكذا قال بعض نحاة البصرة : إن أم ههنا بمعنى بل ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها { أم أنا خير من هذا الذي هو مهين } قال ابن جرير : ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحا واضحا ولكنها خلاف قراءة الأمصار فإنهم قرأوا { أم أنا خير من هذا الذي هو مهين } على الاستفهام (قلت) وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى E وقد كذب في قوله هذا كذبا بينا واضحا فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ويعني بقوله مهين كما قال سفيان حقيير وقال قتادة والسدي : يعني ضعيف وقال ابن جرير : يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال { ولا يكاد يبين } يعني لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عيي حصر قال السدي { لا يكاد يبين } أي لا يكاد يفهم وقال قتادة والسدي وابن جرير : يعني عيي اللسان وقال سفيان : يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فمه وهو صغير وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق وإنما حمله على هذا الكفر والعناد وهو ينظر إلى موسى E بعين كافرة شقية وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوي الأبواب .

وقوله : { مهين } كذب بل هو المهين الحقير خلقة وخلقا ودينا وموسى هو الشريف الصادق البار الراشد وقوله : { ولا يكاد يبين } افتراء أيضا فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة فقد سأل الله أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله : { قد أوتيت سؤلك يا موسى } وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته كما قاله الحسن البصري وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاب والإفهام فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا وإنما أراد الترويج على رعيته فإنهم كانوا جهلة أغبياء وهكذا قوله : { فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب } وهي ما يجعل في الأيدي من الحلبي قال ابن عباس B هما وقتادة وغير واحد { أو جاء معه الملائكة مقترنين } أي يكنفونه خدمة له

ويشهدون بتصديقه نظر إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يفهم ولهذا قال تعالى : { فاستخف قومه فأطاعوه } أي استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له { إنهم كانوا قوما فاسقين } قال اﷻ تعالى : { فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين } قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس Bهما : آسفونا أسخطونا وقال الضحاك عنه : أغضبونا وهكذا قال ابن عباس أيضا ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وغيرهم من المفسرين .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عبيد اﷻ بن أخي ابن وهب حدثنا عمي حدثنا ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم التجيبي عن عقبة بن عامر Bه أن رسول اﷻ صلى اﷻ عليه وسلّم قال : [إذا رأيت اﷻ تبارك وتعالى يعطي العبد ما يشاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له] ثم تلا صلى اﷻ عليه وسلّم : { فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين } وحدثنا أبي حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني حدثنا قيس بن الربيع عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : كنت عند عبد اﷻ Bه فذكر عنده موت الفجأة فقال : تخفيف على المؤمن وحسرة على الكافر ثم قرأ Bه { فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين } وقال عمر بن عبد العزيز Bه : وجدت النعمة مع الغفلة يعني قوله تبارك وتعالى : { فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين } وقوله سبحانه وتعالى : { فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين } قال أبو مجلز : سلفا لمثل من عمل بعملهم وقال هو ومجاهد : ومثلا أي عبرة لمن بعدهم واﷻ سبحانه وتعالى الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب